موسوعة
المعرفة المسيحية

تاريخ الكنيسة
٦

أسبابُ زوال الكنيسة في إفريقيا الشماليّة بعدَ الفتْح العَربيّ

بقلم
الأبُ بولسُ دِ سيزيِيه اليَسُوعيّ

نقلَه إلى العربيّة
الأبُ كميل حشَيمه اليَسُوعيّ

دار المشرق
بيروت

لا مانع من طبعه

بولس باسيم
النائب الرسوليّ للّاتين
بيروت في ١٩٩٢/٢/٢

دار المشرق ش م م - ص.ب. ٩٤٦ - بيروت، لبنان

ISBN 2-7214-4721-1

التوزيع: **المكتبة الشرقيّة**
ص.ب. ١٩٨٦ - بيروت، لبنان

ظهر هذا الكرّاس في مجلّة **المشرق**، **٦٧** (١٩٩٣)، ص ١٣١ - ١٥٣.

تمهيد

كَثُرت التساؤلات حول ماضي الكنيسة في إفريقيا الشماليَّة. فالمعلومات عن هذا الموضوع نزرة والمراجع قليلة. ولئن عرف أصحاب الاختصاص ونخبة من المثقّفين أنّ تلك البلاد أنجبت قدِّيسين عظماء ولاهوتيِّين نبغاء أمثال تِرْتُليانُس وقِبْرِيانُس وأوغُسطينُس، فعامّة الناس لا تزال في حيرة من أمر هذه الكنيسة. وما يلفت الانتباه ويطرح غير سؤال هو كيفيَّة زوالها السريع بعد الفتح العربيّ خلافًا لِمَا كان من أمر شقيقاتها في بلاد مصر والعراق والمشرق العربيّ عامَّة. كما أنّه تجدر الإشارة إلى أنّ اليهوديَّة، التي قامت في تلك النواحي إلى جانب المسيحيَّة، لم تندثر هناك على نحو ما أصاب الكنيسة.

فهذه المقالة إنّما هي محاولة تنطلق من بعض الإجابات المحدودة، فتُقارِب بينها، وتستخلص منها قبسات عسى أن تقشع بعض الغموض وترسل بعض الأضواء.

١ ـ معالم في التاريخ الغابر

+ البدايات غير واضحة السطور. كيف ومتى دخلت المسيحيَّة إفريقيا الشماليَّة؟ لا جواب شافيًا حتّى اليوم. جلّ ما نعرف من مظاهر النصرانيَّة الأُولى فيها، استشهادُ عددٍ من المسيحيِّين سنة ١٨٠ [١]، ثمَّ انعقاد أوَّل مجمع كنسيّ إفريقيّ ضمّ سبعين (٧٠) أسقفًا بين سنة ٢١٨ وسنة ٢٢٢.
+ أوَّل الكتَّاب العظام ترتليانس (نحو ١٥٥ ـ ٢٢٢) والقدِّيس قبريانس أسقف قرطاجة (استشهد بقطع رأسه سنة ٢٥٨).
+ في مطلع القرن الرابع أُحصي في البلاد الإفريقيَّة مائة وخمسون (١٥٠) إبرشيَّة.
+ بين عام ٣٠٣ و٣٠٦ شنّ دِيُوقلِتيانُس اضطهاده العنيف الشهير على المسيحيِّين.

---

(١) ويُعرفون بالشهداء السكِلِّتيِّين Scillitains نسبة إلى سكِلتا (؟)، وهي بلدة مغمورة لم يستطع العلماء تحديد موقعها. وقد استُشهدوا في ١٧ تمّوز / يوليو ١٨٠ في قرطاجة، وحُفظت أسماؤهم: سبِيراتُس، نَرتسالُس، قِتِّينُس، دُوناتا، فِشتِيا، سِكُوندا، فِيتُورِيُوس، فِلِيكس، جِنِرُوسا، يانُوارِيا، قِلِستِينُس، أَكْوِيلِينُس. أُطلب: A.G. Hamman, *Les premiers martyrs de l'Eglise*, Paris, Desclée, 1979, p. 60-62. (هذه الحاشية وسائر الحواشي هي من وضع الناقل).

+ في القرن الرابع أنشأ الأسقف دُوناتُس بدعته المتشدِّدة مع الخطأة، فأحدث كنيسةً معاكسة وشرخًا عميقًا في صفوف المؤمنين.

+ بين ٣٥٤ و٤٣٠ أزهر القدِّيس أوغسطينس الفيلسوف واللاهوتيّ الكبير.

+ سنة ٤١١ انعقد مجمع قرطاجة وقد حضره مائتان وسبعون (٢٧٠) أسقفًا دوناتيًّا ومائتان وسبعة وسبعون (٢٧٧) أسقفًا كاثوليكيًّا، وكان عدد الأساقفة في المنطقة يناهز السبعمائة (٧٠٠). في تلك الحقبة وصلت المسيحيَّة إلى أوجها في شمالِ إفريقيا.

+ في القرن الخامس بدأ توافد الفاندال (٤٢٩). كانوا من أتباع بدعة أريوس فاضطهدوا الكنيسة الكاثوليكيَّة وجحد الكثيرون. وزال عهد الفاندال بعد مضيّ نحو قرن (٥٣٣).

+ في القرن السادس حلّ البيزنطيّون في البلاد، فاحتلّوا شمال إفريقيا سنة ٥٣٣. ولمّا كان البيزنطيّون مسيحيّين عادت إلى الكنيسة بعض عافيتها، إلاّ أنّها أضحت من حزب الفاتحين، وعادت الدوناتيَّة إلى الظهور.

+ في القرن السابع تمّ الفتح العربيّ. في سنة ٦٤٣ احتلّ العرب

ليبيا، وفي سنة ٦٤٩ انكسر البيزنطيّون. عام ٦٩٦ سقطت قرطاجة وعام ٧١٠ تمّ اجتياح إسبانيا. ولم يستتبّ الأمر للعرب إلاّ بعد خمسين سنة من الجهود وثماني حملات.

يلاحظ في تلك الحقبة اجتماع ضمَّ في سنة ٦٤٦ مائةً واثني عشر (١١٢) أسقفًا تابعين لمنطقتَين فقط، ناقشوا مسألة البدعة المونوتيليّة (التي قالت بالمشيئة الواحدة في المسيح). وفي عام ٦٤٩ حُرِّرت آخر كتابة مسيحيَّة في البلاد وتلاشت أخبار أساقفة إفريقيا طوال ثلثمائة سنة. إلاّ أنّه عثر على كتابات أثريَّة تشهد أنّ المسيحيَّة كانت واسعة الانتشار بين السكّان البربر.

أمّا اللغات المتداولة لدى المسيحيِّين منذ بداية العهد المسيحيّ، فكانت الفُونيقيَّة والبربريَّة واللاتينيَّة.

+ لم يعد للمسيحيِّين وأساقفتهم من ذكر إلاَّ في القرن العاشر. فحوالى سنة ٩٨٠ تلقَّى البابا بِندِكْتُس السابع (٩٧٤ - ٩٨٣) رسالة من إكليروس قرطاجة ومؤمنيها بها يسألونه تعيين أسقف عليهم.

+ سنة ١٠٥٣ شكا البابا لاون التاسع (١٠٤٩ - ١٠٥٤) من أنّه لم يكد يجد في إفريقيا إلاّ خمسة أساقفة، وكانوا إلى ذلك يتنافسون على حقّ الصدارة!

+ في سنة ١٠٧٦ لم يجد البابا القدِّيس غريغوريوس السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥) الأساقفة الثلاثة الذين لا بدَّ منهم لتتمّ الرسامة الأسقفيَّة القانونيَّة.

وثمَّة من غريغوريوس السابع نفسه رسالة شهيرة بعث بها إلى الناصر سلطان بجاية. وكان الناصر قد طلب إلى الحبر الأعظم أسقفًا لرعاياه المسيحيِّين. إلاَّ أنّنا لا يمكننا تحديد عنصر هؤلاء: فهل كانوا من أهل البلاد القدامى، أم مسيحيِّين أتوا من الأندلس، أم من أسرى الحروب؟

+ بعد سنة ١٠٧٦، يخيِّم الصمت المطبق. ولئن ذُكر بعض الأساقفة في تونس إبّان القرن الثاني عشر، وفي المغرب الأقصى إبّان الثالث عشر، فإنّما هم أساقفة أجانب جاؤوا لمرافقة مسيحيِّين قادمين من أوروبّا.

إلاَّ أنّ هناك وثائق قليلة خطيَّة أو أثريَّة تشير إلى استمرار وجود جماعات مسيحيّة في الداخل. منها أنّهم كانوا لا يزالون يتكلّمون اللاتينيَّة بالكَفْرَة في القرن الثاني عشر[١]، وأنّه كان في القيروان مقبرة للمسيحيِّين في القرن الحادي عشر، وكذلك في طرابلس. إنّها في الحقيقة آثار ضئيلة، سوى أنّها تشهد على أنّ

(١) الكَفْرَة واحة في جنوب شرق ليبيا.

جماعات بقيت طوال خمسة قرون ونيّف على قيد الحياة في بيئة غير ملائمة ولا مشجّعة، وذلك على الرغم من انعدام الرعاة وانتفاء أسباب المعونة الروحيَّة. ولعلّها كانت في تلك العصور على بعض الحيويّة ممّا يفسّر اهتمام الباباوات بها.

وإذا بحدثَين خطيرَين يساهمان في تسريع زوالها:

١ ـ غزوات **الهلاليّين** بدءًا من سنة ١٠٥١. وعلى الرغم من أنّ بني هلال لم يكونوا ليضمروا الشرّ للمسيحيِّين بوجه خاصّ، إلاَّ أنّ حروبهم كانت مدمّرة وأغرقت البلاد في الفوضى.

٢ ـ غزوات **الموحّدين**. وكان هؤلاء من المتعصِّبين. احتلّوا بجاية سنة ١١٥٣ وتونس عام ١١٥٩، واضطُرّ المسيحيّون واليهود الموجودون في المدينة أن يختاروا بين اعتناق الإسلام والموت، فأسلم بعضهم وقُتل بعضهم الآخر.

٢ ـ أسباب انكفاء المسيحيَّة في إفريقيا

بدت كنيسة إفريقيا في مطلع القرن الخامس في ازدهار أكيد. فإبرشيَّاتها يتراوح عددها بين الستّمائة والسبعمائة، وهي تتجذّر في ماضٍ عريق، ونَبَغ في صفوفها قدّيسون ومعلّمون مبرِّزون من

أمثال ترتليانس وقبريانس وأوغسطينس، وروَّت تربتها دماءُ شهداء أبرار كثيرين...

وإذا بالهجمات العربيَّة الأُولى تجتاحها بدءًا من سنة ٦٤١ . وكان وصول عُقبة بن نافع إلى المحيط الأطلنطيّ سنة ٦٨٣، وتمّ اجتياح إسبانيا عام ٧١١ . فلم يَدُمْ الفتح العربيّ إذًا إلاَّ سبعين سنة، لم يقف أمامه لدى استتباب الأمور له سوى أربعين إبرشيَّة على وجه التقريب. وزالت معالم تلك المطرانيَّات مع مجيء الموحِّدين في القرن الثاني عشر.

ذلك الزوال فريد من نوعه في البلدان العربيَّة الأخرى ويصعب تبيُّن أسبابه بوضوح. فثمَّة عدَّة إمكانيَّات للتفسير، إلاَّ أنّ ما من واحدة ترضي كلّ الرضا. ولسوف نستعرض جميع تلك الأسباب المحتملة بدءًا من أرقاها في القِدم، عسى أن نستطيع من مقارنتها تصوُّر بعض الحلول.

آ ـ تأثير قرطاجة البعيد

لئن بقيت روما في إفريقيا خمسمائة سنة، فقد استقرَّت قرطاجة فيها ألف عام. وكان أبناؤها قد نزلوا في أماكن عديدة من السواحل حتَّى شواطئ الأطلسي، إلاّ أنّهم توغّلوا أيضًا في داخل الأراضي في مناطق تونس وشرق الجزائر الحاليَّة. ولم يتلاشَ

تأثيرهم مع زوال قوّة قرطاجة على الصعيد السياسيّ، لا بل استمرّ حتّى بعد أفول الأمبراطوريّة الرومانيّة. من ذلك أنّ القدّيس أوغسطينس يفيدنا أنّ اللغة الفُونِيقيّة، لغة قرطاجة الأصليّة، كانت في أيّامه شائعةً في الأرياف، وفي منطقة هِيبُّونَه مدينته[١] سعى لتعيين أسقفٍ «لأنّه يتكلّم الفونيقيّة». كما أنّه عرض على أسقف قالمة الدوناتيّ مناظرةً علنيّة في حضور ترجمان فونيقيّ ينقل الأسئلة والأجوبة. ويبدو، بحسب غُوتِييه[٢] أنّه كان هناك علاقة بين اللغة الفُونِيقيّة والدوناتيّة، لأنّ هذه البدعة راجت أكثر ما راجت بين السكّان الفونيقيّين. وكتب أوغسطينس أيضًا: «لئن سألتم فلاّحينا مَن هم، أجابوكم: نحن كنانيّون، أي طبعًا كنعانيّون».

وبعد نحو قرن من وفاة أوغسطينس، أدلى المؤرّخ البيزنطيّ بُروكُوبيُوس (توفّي حوالى ٥٦٢) بشهادته فقال: «أهل البلاد يتكلّمون الفونيقيّة»[٣].

ولعلّ استمرار استعمال الفونيقيّة هو في أساس أساطير قديمة

(١) وهي قرب عنّابة الحديثة في شرق الجزائر.

(٢) E.F. Gautier, *Le Passé de l'Afrique du Nord. Les Siècles obscurs*, Paris, Payot, 1952, p.137.

(٣) غوتييه، المرجع نفسه، ص ١٤٠.

تعيد بعض القبائل البربريّة إلى أصل شرقيّ يرقى إلى فتوحات يشوع بن نون. وآخر أثر لتلك الأساطير قبر يشوع، وهو موضوع تكريم إلى اليوم في «سيّدنا يُوشع» قرب الغزوات[١].

مع انتهاء سيطرة البيزنطيّين ومجيء العرب، حلّت في البلاد شعوب شرقيّة، وقد ذهب غوتييه إلى التفكير في أنّ «جسرًا» قد عَبَر فوق الحقبتَين الرومانيّة والبيزنطيّة وجَمَع بين قرطاجة والإسلام، وكلاهما كيانٌ شرقيٌّ في طرُق معيشته وتفكيره وتعبيره. قال: «اللغة الفونيقيّة وتأثير قرطاجة بقيا تحت الرماد طوال مدّة الأمبراطوريّة الرومانيّة وزمن اجتياحات الفندال وسيطرة البيزنطيّين. ثمّ التقت قرطاجة الإسلام، ولطالما كانت بذارًا شرقيًّا لا قِبَل له بالفناء، على استعداد دائم للازدهار». وانتهى إسطفان كزال Gsell إلى مثل هذا الاستنتاج إذ كتب: «لمّا كانت العربيّة، ذات قرابة من الفونيقيّة، سهل عليها الحلول محلّها... لذا من المعقول جدًّا الافتراض أنّ كثيرين من البربر اتّخذوا لغة الإسلام لغةً لهم لأنّهم تعلّموها بلا عناء لسابق معرفتهم الفونيقيّة»[٢].

(١) مرفأ في الجزائر الحاليّة قرب حدود المغرب.

(٢) S. Gsell, *Histoire ancienne de l'Afrique du Nord,* Paris, Hachette, 1973, 4 volumes; cité par Gautier, *op. cit.* p. 130.

هذا الدور الذي قامت به قرطاجة في استقبال الأفارقة الإسلام هو، لا شكّ، من باب الافتراض، إلاّ أنّ غوتييه يشير دعمًا لرأيه إلى أنّ المركزين الوحيدين في أوروبّا حيث طال بقاء الإسلام هما بلدان تركت قرطاجة فيهما أثرها، وهما إسبانيا وصقلّيّة.

ب ـ سياسة روما الاقتصاديّة في إفريقيا

لا بدَّ من كلمة في هذا الشأن، لأنّه لا يُستبعَد أن تكون تلك السياسة قد ساهمت، أقلّه مساهمةً غير مباشرة، في اضمحلال المسيحيَّة بإفريقيا. ذلك بأنّ روما لم تنظر قطّ إلى ممتلكاتها الإفريقيَّة نظرتها إلى أرض استيطان بل إلى أرض للاستغلال. لا شكّ أنّ عددًا من المستوطنين الرومان نزلوا تلك البلاد، كمثل الذين أرسلهم طِيباريوس غراكُس وأخوه قايُوس سنة ١٢٣ ق.م.، وكانوا بضعة آلاف، أو كمثل المحاربين القدامى الذين وُزّعت عليهم الأراضي الزراعيَّة. بيد أنّ عدد الأجانب الوافدين إلى المغرب ظلّ محدودًا، كما ظلّ السوادُ الأعظم من السكّان من عنصر البربر، وقد أضحوا في أغلبيّتهم نوعًا من العمّال الزراعيِّين يستغلُّهم كبار الملاّكين. وتَهافَت الرأسماليّون الرومان على الأراضي المخصّصة لزراعة القمح، واثقين من تصريف إنتاجها لاحتياج روما الماسّ إليه. فقد دأبت الحكومة منذ أيّام أوغسطس

على توزيع القمح مجّانًا على ٢٠٠،٠٠٠ من مواطنيها، وكان بوسع المسؤولين في إفريقيا تجويع العاصمة ساعة يشاؤون. وعليه راعت السلطات جانب هؤلاء المتنفّذين إلى حدّ المبالغة. وممّا رواه المؤرّخ بلينُس أنّ ستّة ملاّكين كانوا يتقاسمون نصف أراضي إفريقيا.

وعُرف عن الأمبراطور طِراجان (٩٨ - ١١٧) أنّه لجأ إلى سياسة العزل، حاصرًا السكّان الأصليّين في الأراضي القاحلة ومقتطعًا في ما تبقّى مساحاتٍ شاسعة خصّ بها الطبقة الأرستقراطيَّة، الرومانيَّة منها والبربريَّة، أو مُدُنَ المحاربين القدامى، فضلاً عمَّا احتفظ به للأسرة المالكة.

وجاء إلى الحكم في أواخر القرن الثاني سِبْتيمُس ساوِيرُس (١٩٣ - ٢١١) وأبناؤه، وهم من الأفارقة، فتابعوا السياسة عينها وزادوا في الطين بلّة إذ استملكوا الأراضي الزراعيَّة التي كانت في حوزة القبائل البدويَّة، فاضطرّ هؤلاء القوم إلى الانكفاء شطرَ الصحراء، مهيّئين بذلك للأمبراطوريَّة أشدّ الأخطار. أمّا الإدارة الملكيَّة فصرفت جلَّ همّها في قمع انتفاضات الفلاّحين المسلوبين التعساء وتحصيل الضرائب منهم.

أمّا الكنيسة فلم تكن مسؤولةً قطعًا عن تلك السياسة وما نتج

عنها من تفقير الفلاّحين في البلاد، سوى أنّ اعتناق قسطنطين المسيحيَّة في عام ٣١٣ كان من شأنه أن يُظهر التضامن السريع والمخيف بين الكنيسة الرسميَّة والسلطة الملكيَّة، علمًا أنّ تلك السلطة كانت، على الرغم من تبنّيها الدين المسيحيّ، مسؤولة عن الأوضاع الاجتماعيَّة المتردِّية في أقاليم إفريقيا. وتجدر الإشارة في هذا الباب إلى أنّ المسيحيِّين المعترضين بحكم اقتناعاتهم الدينيَّة على الخدمة العسكريَّة اعتُبروا في نظر الكنيسة المضطهَدة شهداء، أمّا بعد تصالح الكنيسة والدولة فقد اعتُبروا محرومين!

ومن المظاهر الأخرى التي تجلَّى فيها تعاضد الكنيسة والسلطة المستبدَّة أنّ قسطنطين انحاز إلى فريق الكاثوليك في مواجهة الدوناتيِّين المتمرِّدين وحلفائهم المعروفين باسم «السِيركُونْسِلِّيُون» وكان قسم منهم ينتمي إلى طبقة العمّال الزراعيِّين المستغَلِّين الفقراء[1]. ولعلّ تأثير الرأسماليَّة الرومانيَّة كان له وزنه في تحديد مصير الكنيسة الإفريقيَّة، علمًا أنّ سائر مقاطعات الأمبراطوريَّة كانت تعاني من المشكلة نفسها.

(١) كان السِيركونسليون Circoncellions- أي الذين يحومون حول الأهراء والمنازل ـ عمّالاً أحرارًا مياومين من البربر ثاروا على الأغنياء الظالمين، وما عتّم أن اختلط بهم الكثير من الخارجين على القانون، وظلّوا يعيثون في الأرض فسادًا حتّى مجيء الفندال في الثلث الأوّل من القرن الخامس.

جـ ـ الخوف من الغزاة الجنوبيّين

رأينا أنّ الرومان الطامعين في الأراضي الخصبة راحوا يدحرون قبائل البربر الرُّحّل إلى الجنوب الأقصى خارج حدود المستوطنات. وقد رافق هذا الانكفاء استعمال الجمال في الصحراء، فاستعان البربر بها وقضوا على السود الحضَر الذين قطنوا الصحراء آنذاك، ثمّ تجمّعوا في قبائل ضخمة الأعداد وراحوا يتنقّلون ويشنّون الغارات بسرعة فائقة حتّى غدوا أشرس أعداء الأمبراطوريّة. وقد ذاق منهم الجيش البيزنطيّ الأمرّين إبّان القرنَين السادس والسابع، وعانت القرى والمدن بسببهم الكثير من الويلات. وكان السكّان المتحضّرون في تونس وشرق الجزائر، وهم الذين تأثّروا أكثر من سواهم بنمط عيش الرومان، يكرهون هؤلاء البدو النهّابين كرهَهم للشيطان الرجيم، فعلى يدهم تحلّ بالأماكن الآمنة صنوف الفوضى وانعدام الأمن والعوز. ولا شكّ أنّ هؤلاء «المظلومين» وجدوا في دخول العرب الفاتحين خاتمة أحزانهم وخالوا أنّهم سيوفّرون لهم حدًّا أدنى من الهدوء والنظام. فكان الخوف من أخطار غزاة الجنوب عاملاً فعّالاً للانشراح أمام الفاتحين القادمين من الشرق.

لقد لاحظ غُوتييه أنّ جميع المعارك العظمى إبّان فتح المغرب على يد العرب قد جرت في المناطق النائية جهة طَنجة وتِيارات أو

جبال الأوراس. أمَّا المدن الرومانيَّة القديمة في مناطق تونس (الحاليَّة) فيكاد لا يكون لها ذكر. ولا عجب، فما كانت لتبدي أيّ مقاومة. ولاحظ غوتييه أيضًا أنّ الأفارقة المُتَنَنين كانوا مدنيّين ومزارعين مسالمين، لذا بات العدوّ في نظرهم البربَر «الهَمَجَ» لا إدارة الخلفاء التي بدت لهم، رغم سلبيَّاتها، أداةَ نظامٍ واستقرار.

وممّا لا شكّ فيه أنّ القبول بالفاتحين الجدد والاستسلام لهم لا يفرضان اعتناق دينهم بالضرورة، إلاَّ أنّهما يعبّدان له الطريق.

د ـ «سرعة عطب» المسيحيَّة في إفريقيا

«لقد ارتأى الله أنّه أفضلُ لمجده أن تزول الكنيسة في إفريقيا من أن تبقى مشوَّهة بالقروح التي جئنا على ذكرها. لذا بدَّد ما تبقَّى منها تعيسًا، فزال في سنوات قليلة». هذا ما استنتجه الأب ج. ميناج(١)، وإنّنا لنتعزّى عن مقولته الغريبة بأنّه كتب غير ذلك من الأمور، وتفسيره الأخلاقيّ التقليديّ لا يستحقّ بالطبع التوقّف عنده. إلاَّ أنّه لا بدَّ من الأخذ بعين الاعتبار أنّ ميول البربر آنذاك إلى الفوضى والتطرّف لم تكن لترسّخ المسيحيَّة في إفريقيا، لا سيَّما أنّ أسُسها كانت ضعيفة بسبب ما أُجري من عمادات

---

(١) J. Mesnage, *Le christianisme en Afrique du Nord. Déclin et Extinction,* Paris, Auguste Picard, 1915, p. 290.

جماعيَّة متأخِّرة في القرن الخامس. وجدير بالذكر في هذا المجال أنّ هناك أوجهًا للشبه بين المظاهر المسيحيَّة المتطرِّفة كما بدت في الدوناتيَّة (من رفض لكلّ سلطة، وبغض للأغنياء، وتمجيد للاستشهاد) وبين مظاهر التطرُّف عند المسلمين الخوارج في القرن الثامن وقد تبلبلت من جرّائها سائر مناطق إفريقيا الشماليَّة.

إلى ذلك فقد سجّل التاريخ إبّان الاضطهادات التي شنّها داقيوس (٢٠١ - ٢٠٥) وديوقليتيانُس (٢٥٤ - ٣١٣) تهافت الكثيرين على الجحود، حتّى قال القدِّيس قبريانس وهو لا يتمالك من الألم: «كنتَ تراهم يهرولون إلى الساحة العامَّة، مسرعين إلى جحود النفس كما لو حقَّقوا أمنيةً غالية». وقال آخر: «ولمّا كان من المستحيل وصول جميع الجاحدين إلى أماكن الذبائح المدنّسة، فقد اضطرّت السلطات إلى وضع البخور في كلّ مكان ممّا جعل سائر المحالّ هياكلَ للإجرام...». كما أنّ ابن أبي زيد[1] روى في زمن متأخِّر أنّه إبّان الفتح ارتدّ البربر نحو اثنتي عشرة مرّة إن في إفريقيا أو في المغرب، وفي كلّ مرّة كانوا يشنّون الحرب على المسلمين.

لعلّ بعض ما جاء في الشهادات السابقة مبالَغ فيه. لذا لن

(١) في الأصل الفرنسيّ: إبن أبي يزيد، وهو على ما يبدو غلط طباعيّ. وابن أبي زيد القيروانيّ (٩٢٢ - ٩٩٦) هو أحد كبار علماء المالكيَّة.

نوليه المزيد من الثقة. وعلى العكس نتوقّف عند ما أشار إليه غوتييه من أنّ الأمر الوحيد الذي يتحمّس له البربر ويبذلون في سبيله المهجة والحياة إنّما هو العشيرة والأسرة. فهذا ما ينبغي الدفاع عنه قبل كلّ شيء، مهما كان الثمن وحتّى لو ذهب الدين ضحيَّته. وقد رُوي في ذلك أنّ الزعيمة المعروفة بالكاهنة (ولعلّها كانت يهوديَّة)، لمّا أيقنت في عشيَّة آخر معركة لها أنّها ستُمنى بالهزيمة، أوعزت إلى ابنَيْها أن ينتسبا إلى حزب العدوّ وقالت لهما: «إذهبا، فبكما سيحتفظ البربر ببعض السلطان». وفي الواقع، ما إن توفّيت والدتهما حتّى ولاّهما العربُ مهمّةً عسكريَّةً وأرسلوهما على رأس خيّالتهما ليجوبوا المغرب «فيقتلوا الروم والبربر المارقين».

يضاف إلى الأسباب السابقة أنّ المسيحيِّين في إفريقيا كانوا ميّالين إلى المشاحنات والتحزُّبات. فالقرن السادس كان مليئًا بالنزاعات الدينيَّة الحادّة، إذ استعادت الدوناتيَّة عنفوانها وما جرّه من أعمال العنف، وقامت المونوتيليَّة فشقّت الصفوف وراح الأفارقة، وهم التوّاقون أبدًا إلى الثورة على السلطة المركزيَّة، يطالبون بحطّ الأمبراطور المتَّهم بالهرطقة[1]. وكان ذلك في

(١) الإشارة هنا إلى الأمبراطور كونستانت الثاني (٦٤١ - ٦٦٨) وكان يحمي الشيعة المونوتيليّة في مواجهة العقيدة المستقيمة. وكان خليعًا ماجنًا فقُتل، قتله أحد قوّاده.

حدود سنة ٦٤٥ قُبيل الهجمات العربيّة الأُولى. ولم يرعوِ المسيحيّون في ما بعد، إذ ذكر التاريخ في نهاية القرن التاسع شيعةً مجهولة نخرتْ آكِلَتُها أعضاءَ الجماعات المسيحيَّة المحتَضَرة.

هـ ـ تنظيم الكنيسة الإفريقيّة

هل كان للبنية الكنسيَّة دورها في اضمحلال المسيحيَّة بإفريقيا؟ ممّا لا شكّ فيه أنّ مطالعة المصادر تُظهر أهمّيَّة الدور الذي قام به الأساقفة والمكانة التي كانت لهم. فالانطباع السائد لدى الاطّلاع هو أنّ الكنيسة هي الأساقفة ومؤسَّساتهم، وأنّ الجماعة هي الأسقف. وجميع المؤلّفين لا يحسبون حسابًا إلاّ للإبرشيّات. وإن تكلّموا على ازدهار الكنيسة ردحًا من الزمن فلأنّها كانت تعدّ كذا وكذا مطرانيّة... وإن استحال الإتيان على ذكر إبرشيّات فهذا يعني أنّه لم يعد هناك من مسيحيّين... وانعدام الأساقفة معناه انعدام الكهنة، وبالتالي انعدام الأسرار الكنسيَّة والحياة المسيحيَّة. وفي حال كهذه لا مجال للقيام بأيّ عمل سوى الانتظار من روما أن تتذكّر وترسل أسقفًا. وما العمل لو تعذّر الحصول على أساقفةٍ ثلاثة لتتمّ عن يدهم رسامة أحد الأساقفة الجدد رسامةً قانونيَّة؟

وعليه فالفندال، لمّا راحوا يضطهدون الكاثوليك، إنّما صبّوا

حممهم على الأساقفة، ووجَّهوا بذلك إلى الكنيسة جمعاء ضربة قاصمة. وقد روي عن هَنّريك بن جِنْسِرِيك أنّه أهلك سبعين أسقفًا، وعن ثراسَمُند أنّه نفى منهم مائة وعشرين من أصل أربعمائة. وفي مجمع قرطاجة، سنة ٥٢٥، لم يحضر من موريتانيا القيصريَّة سوى أسقفٍ واحد. ولئن بقي فيها أساقفة من أتباع آريوس، فإنّهم زالوا عن الوجود بزوال دولة الفندال سنة ٥٣٣ لمّا أتى البيزنطيّون. وقد أعيدت الكنيسة الكاثوليكيّة آنذاك على يد يوستينيانُس، بيد أنّ رقعة انتشارها كانت محدودة وأساقفتها كانوا طَوع بنان الدولة.

كلّ تلك الاضطرابات هبطت بالكنيسة إلى أدنى المستويات، ولمّا استقرّ العرب في إفريقيا كانت الإبرشيَّات، كما ذكرنا، لا تتعدَّى الأربعين. فهل يعود الخلل إلى تضخّم التنظيم الأسقفيّ وطغيان التراتبيَّة فيه، بحيث إنّه لمّا زال زالت معه حيويَّة الكنيسة في إفريقية وبقيت الجماعات مستفرَدة لا تقوى على تأمين تضامنٍ لا بدَّ منه؟ لكأنّي بجداول أسماء الأساقفة ورسائل الباباوات تدفع إلى مثل هذا الاعتقاد. ومع انعدام الأساقفة ما لبثت الكنيسة أن تفكّكت أوصالها وتقلّص ظلّها حتّى لم يعد لها في البلاد مع بروز القرن الحادي عشر سوى أساقفة ثلاثة.

وعلى الرغم من تلك الصفحات السود، فثمّة عدد لا بأس به

من النصوص الأدبيَّة والنقوش تشير إلى وجود جماعات مسيحيَّة مندمجة في المجتمع الإسلاميّ. كان أغلبها بدون أسقف، يدبِّر شؤونها على الأرجح رؤساء مدنيّون عيّنتهم السلطة الإسلاميَّة. ونحن نجهل كلّ الجهل كيفيَّة تنظيمها، إلاَّ أنّنا نعلم أنّها صمدت في اختلافها وخصوصيَّاتها الدينيَّة بأعداد أكثر ممّا يظنّ بعضهم ومدَّةً زمنيَّة أطول. ذلك هو على كلّ حال ما انتهت إليه دراسة كريستيان كورتوا الدقيقة للرسالة التي وجّهها البابا غريغوريوس السابع إلى سلطان بجاية(١). بيد أنّ التاريخ الرسميّ المسيحيّ تجاهلها لعدم عثوره فيها على أساقفة.

وهناك عنصر آخر من عناصر المؤسّسة المسيحيَّة كان له دور سلبيّ في تطوّر كنيسة إفريقيا، هو وزن روما والبابا. فيبدو أنّ روح الاستقلاليَّة في هذه الكنيسة المحلِّيَّة قد هربت ووجدت ملجأها عند الدوناتيِّين. أمّا الكنيسة المستقيمة الرأي، فعلى الرغم من حبّها للمنازعات، وبسبب سيطرة يُوستينيانُس عليها «وكمِّه فمِها

(١) Christian Courtois, *Grégoire VII et l'Afrique du Nord. Remarques sur les communautés chrétiennes d'Afrique au XIe siècle,* dans *Revue Historique,* 1945, t. 195, pp. 98-122 et 193-226.

وتدجينها» ـ على حدِّ ما كتبه شارل أندره جوليان[١] ـ لم تجد لها مناصًا من التوجّه نحو روما حيث كان المتربّع على سدّة البابويَّة في نهاية القرن السادس غريغوريوس الكبير. وقد فرض هذا الحبر سلطته وتدخّل في سائر الأمور وأوجب على جميع المرؤوسين الخضوع التامّ. ورأى جوليان «أنّ هذه المراقبة كانت عنصرًا فعّالاً في انحلال الكنيسة الإفريقيَّة»[٢].

و ـ تداعي الكنيسة في إفريقيا إبّان القرن السابع

إنّ جميع الأسباب التي اعتبرنا أنّها أدَّت إلى زوال المسيحيَّة في إفريقيا الشماليَّة تبدو غير جازمة. غير أنّ هناك ثلاثة أُخرى نخالها أقوى حجّةً وأوضحَ معالِمَ.

أوّلها التدهور المريع في أحوال المسيحيَّة بإفريقيا عشيَّة الفتح الإسلاميّ. وقد سبق أن رأينا أسباب ذلك: إنشقاق الدوناتيّين وما ولَّده من أعمال عنف وقمع؛ غزوات الفندال الأريوسيِّين والاضطهادات التي شنّوها، ممّا بدَّد مصافّ الأساقفة (علمًا أنّ المؤرِّخين بالغوا في تشويه سمعة أولئك الغزاة)؛ مجيء البيزنطيِّين،

(١) Charles-André Julien, *Histoire de l'Afrique du Nord, des Origines à la Conquête arabe*, Paris, Payot, 1951, p. 271.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٧٤ .

وهم وإن ساعدوا في إعادة المذهب الكاثوليكيّ إلى مركز القيادة، إلاَّ أنّهم جعلوه متضامنًا مع السلطة الحاكمة وهي التي أغرقت البلاد في نظام ضريبيّ وماليّ ظالم واستغلّتها بأساليب منظَّمَةٍ مدروسة ذهبت بعافيتها وقضت عليها.

وفي الوقت نفسه، لا سيَّما بدءًا من القرن الخامس، شرعت القبائل الصحراويَّة، القويَّة بجمالها، تخترق الحدود الجنوبيَّة وتنتشر شيئًا فشيئًا على الهضاب العليا وحتَّى ممرّ تازة[1]، مضطرَّةً البيزنطيِّين إلى القيام بحملات شديدة البأس زادت في تدمير البلاد. أمّا الجماعات المسيحيَّة فكانت في تلك الأثناء بين فكّي الكمّاشة يضغط عليها من الشمال الغزاةُ الفندال ومن الجنوب مدُّ البدو، كما أنّها كانت ضحيَّة الاضطرابات الداخليَّة وعنف الدوناتيِّين، ممَّا تركها في مطلع القرن السابع في حالة يُرثى لها.

وكانت الكنيسة في مطلق الأحوال مفكَّكة الأوصال معدَمة التنظيم. وإنّنا لنذكّر ببعض ما سقناه آنفًا من الأرقام: في عام ٤٣٠، لدى وفاة القدِّيس أوغسطينس، كان في إفريقيا (٦٠٠) ستّمائة إبرشيَّة ونيّف. في سنة ٤٨٤، بعد مرور الفندال، تدنّى الرقم إلى (٤٧٠) أربعمائة وسبعين. وفي عام ٥٣٦، بعيد وفود

---

(١) مدينة استراتيجيَّة تقع بين الريف والأطلس المتوسّط في المغرب الأقصى.

البيزنطيّين بإمرة بِيلِيزارِيُوس، لم يحضر أحد المجامع الإفريقيَّة سوى (٢٢٠) مائتين وعشرين أسقفًا. ولم يبقَ غداة الفتح العربيّ إلاَّ (٤٠) أربعون. ولئن كان من غير الصواب القول بأنّ زوال الأساقفة ـ عن طريق النفي في أغلب الأحيان ـ أوجَب زوال جماعات المؤمنين، إلاَّ أنّه لا بدَّ من الاعتراف بأنّ غياب الرعاة أدَّى إلى انهيار النظام والتنظيم. ولم يَحُل هذا الانهيار دون استمرار المشاحنات بين المسيحيِّين، فقد زاد في طين الدوناتيَّة بلَّةً المونوتيليَّة لا بل المونوفيزيّة على يد الرهبان المصريِّين الفارّين من الحكم العربيّ الجديد، وكانوا يبثّون دعوتهم بغيرة ونشاط. ويبدو أنّ كلّ تلك المنازعات قد امتصّت آخر قوى الفكر والبحث في كنيسة إفريقيا، ولم يعد لأمثال ترتليانس وقبريانس وأوغسطينس من وجود، وقد هاجر المثقّفون إلى صقلّيّة وإيطاليا.

وإن قارنّا وضع الكنيسة الإفريقيَّة بما كان من وضع شقيقاتها في الشرق الأدنى، لرأينا أنّ المسيحيِّين في بلدان المشرق وقفوا من الفاتحين المسلمين موقفًا مشرِّفًا. فكانوا أصحاب المعارف، ملمِّين بالطبّ والعلوم والفلسفة، وكان لهم ولِما قاموا به من ترجمات الفضلُ الكبير في نقل علوم اليونان إلى العرب. وكانوا بارعين في الإدارة والسياسة والدبلوماسيَّة (نذكر على سبيل المثال الجاثليق طيماثاوس الأوّل ومهارته في الدفاع عن المسيحيِّين أمام

الخلفاء)[١]. وأخيرًا كان لهم قادة، في حين أنّ مسيحيّي المغرب كانوا يواجهون الإسلام الفاتح لا قائد لهم ولا مفاوضًا لبقًا.

إنّ زوال المسيحيّة في إفريقيا زوالاً سريعًا مردّه إلى الوضع الثقافيّ من جهة، وإلى الوضع القوميّ من جهة أخرى، بمعنى أنّ المسيحيّة لم تتجذّر في البلاد على نحوٍ كافٍ. كما أنّ المردّ هو أيضًا ومن جهات أخرى إلى الوضع الاقتصاديّ (أي إلى استئثار الأرستقراطيّة الرومانيّة بالأراضي، وإلى الضرائب الباهظة التي فرضها البيزنطيّون)، وإلى الوضع الاجتماعيّ (ميول البربر إلى الانتفاض والفوضى، وثورات السيركونسليون)، وإلى الوضع السياسيّ (التضامن في الواقع بين سلطة الأمبراطور وسلطة الكنيسة)، وإلى الوضع الدينيّ البحت. جميع تلك الأوضاع تضافرت، بيد أنّ العنصر الأقرب إلى الواقع الإفريقيّ هو، إلى جانب عدم تجذّر الكنيسة البربريّة واستقلالها، تقهقر كنيسة إفريقيا على الصعيد الثقافيّ والفكريّ. مأساة المسيحيّين في المغرب الإفريقيّ كانت في أنّهم اضطرّوا إلى مواجهة الإسلام لا سلاح لهم ـ على عكس الفرنج في أوروبّا ـ ولا ذهب لهم ـ على عكس البيزنطيّين ـ ولا ثقافة لهم ـ على عكس النساطرة ـ فقد وقفوا بين

(١) طيماثاوس هذا هو جاثليق النساطرة الشهير (٧٨٠ ـ ٨٣٣). من أهمّ منجزاته تنظيم طقوس كنيسته وإرسال المبشّرين إلى بلاد آسيا والعرب. جرت بينه وبين الخليفة المهدي محاورة بيّن فيها تعاليم المسيحيّة وشرَحها.

أيدي المنتصرين عليهم صِفر الأيدي، لا يستطيعون تقديم الخدمات. لذا لم يطلب منهم أسيادهم الجدد أيّ شيء سوى اعتناق الإسلام. وقد لبّى البربر تلك الدعوة يحثّهم بغضهم الوراثيّ للسلطة الحاكمة، ولئن قُيِّض لهم في ما بعد الثأرُ من أسيادهم العرب على الصعيد السياسيّ، إلاّ أنّهم بقوا أمينين لهم على المستوى الدينيّ.

ز ـ عُزلة المسيحيَّة في إفريقيا

هناك عنصر لا بدّ أنّه كان بالغَ التأثير في مصير المسيحيَّة بإفريقيا. إنّه عُزْلتها بعد الفتح العربيّ. وقد كان الأمر على خلاف ذلك في الشرق الأدنى حيث استندت الجماعات المسيحيَّة إلى الأمبراطوريَّة البيزنطيَّة المسيحيَّة، ومعها ظلَّت على اتِّصال رغم سوء التفاهم القائم بين الطرفَين. وكان الأمر على خلاف ذلك أيضًا في إسبانيا حيث استند المسيحيّون إلى مناطق داخليَّة تدين بالمسيحيَّة. أمّا جماعات المغرب فقد وجدت نفسها وحيدةً لا ينصرها نصير. ذلك بأنّ جيش الروم وأسطولهم نزحا عن قرطاجة نزوحًا نهائيًّا سنة ٦٩٨، وإلى الشمال أضحت نقاط التواصل مع الغرب المسيحيّ إن في إسبانيا أو في صقلّيّة خاضعةً لسلطان العرب، كما أنّ البحر سرعان ما سيطر عليه المسلمون، علمًا أنّ

البربر لم يرتاحوا يومًا إلى خوض البحار. وأخيرًا إلى الشرق كانت ليبيا الباب المفتوح لدخول الجيوش، في حين قامت إلى الجنوب الصحاري الخالية...

فهل ستقوم روما والقسطنطينيَّة ببعض الجهد، إن لم يكن في سبيل العودة، أقلّه من أجل الحفاظ على شيءٍ من العلاقات؟ كلاّ. فالعالم المسيحيّ بأسره في موقف دفاع ولسوف يظلّ على ذلك الموقف مدّةً طويلة. ولئن استطاع الروم مدّةً تجهيز أسطول واستعادة قرطاجة لفترةٍ وجيزة، إلاّ أنّهم سرعان ما انسحبوا انسحابًا لا عودة بعده. أمّا شعوب الغرب المسيحيَّة، فقد غارت في ظلمات بداية العصر الوسيط، في حين بدأت تتطوّر في إسبانيا حضارة باتت غايةً في التألّق. ولعلّ تلك الحضارة قامت حاجزًا منيعًا دون المسيحيِّين الأشقياء في المغرب لأنّهم ما كانوا ليمتّوا إليها بأيّ صلة. ولا بدّ من انتظار القرن الحادي عشر لتلمّس بدايات الفتح الإسبانيّ المضادّ في إسبانيا، والثاني عشر لرؤية النورمانديِّين ينزلون مؤقّتًا في ثغور تونس، والخامس عشر لمشاهدة احتلال الشواطئ المغربيَّة على يد الجيوش المسيحيّة... عند ذاك كانت آثار الجماعات المسيحيَّة قد زالت تمامًا.

أمّا البابويّة فكانت في مطلع العصور الوسطى ضعيفةً تنتابها الأزمات المتكرّرة، ويبدو أنّها لم تهتمّ بالكنيسة في إفريقيا ولم

يكن لها القدرة على أن تهتمّ بها، وكان أفقها لا يتعدَّى أسوار روما. وفي القرنَين التاسع والعاشر لا أثر معروفًا لعلاقات قامت بين إفريقيا وروما سوى حدثَين: أوّلهما لقاء تمّ بين البابا فُورمُوسُس[1] وأساقفة أفارقة جاؤوا يستمزجون رأيه في انشقاق فرّق صفوفهم (!!). والثاني إيفاد مسيحيّي قرطاجة إلى البابا بنديكتُس السابع[2] المدعوَّ يعقوب ليرسمه أسقفًا (سنة ٩٨٠).

أمّا في القرن الحادي عشر، ومع بروز باباوات ساعين إلى الإصلاح، فبدت الأمور تتبدَّل. ولدينا رسالتان من لاون التاسع (١٠٤٨ - ١٠٥٤) إلى كنيسة قرطاجة للبتّ في نزاعات بين الأساقفة (!!)، ثمَّ رسالتان من غريغوريوس السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥) إلى كنيسة قرطاجة أيضًا، إحداها لتعزية الأسقف قِرياقُس الذي وِشى به المسيحيّون إلى الحاكم المسلم فضُرب بالسياط على مرأى من الجمهور، والأخرى إلى المذنبين لتوبيخهم. ولدينا خاصّةً الرسالة الشهيرة التي بعث بها غريغوريوس السابع نفسه عامَ ١٠٧٦ إلى الناصر عاهل بجاية، وهي أوّل مراسلة بين حبر رومانيّ وسلطان مسلم في المغرب. وهذه الرسالة مفعمة باللطف ردّ بها البابا على مكتوب بادر الملك فأرسله ليطلب إلى

---

(١) ٨٩١ - ٨٩٦.

(٢) ٩٧٤ - ٩٨٣.

الحبر الرومانيّ سيامة المدعوّ سِرْفَنْدُس أسقفًا بعد أن اختاره مسيحيّو بجاية لهذه المهمّة. وأرسل السلطان سرفندس هذا بعد أن حمّله الهدايا وتعهّد للبابا بأنّه سيُعتِق جميع العبيد المسيحيّين في مملكته.

ومع بزوغ القرن الثالث عشر كثرت العلاقات بين روما وإفريقيا، وغالبًا ما دارت المواضيع حول المسيحيّين. بيد أنّ نوعيّة هؤلاء قد تبدّلت، إذ كانوا من التجّار أو الجنود الوافدين من أوروبّا في حماية المعاهدات، فلا يندمجون في البلاد وبإمكانهم في كلّ ساعة الانكفاءُ شطرَ الشمال. أمّا المسيحيّون الأفارقة، الأصليّون، لاسيّما القاطنون في الداخل والذين لا أساقفة لهم، فكان انعزالهم كلّيًّا.

ولا بدَّ من الإضافة أنّه في ما يخصّ إفريقيا الغربيّة، التي لم يطلها المدّ البيزنطيّ ـ باستثناء أقصى الشمال في المغرب ـ، فقد بدأت العزلة فيها قبلها في سائر المناطق، ممّا حدا المؤرّخ جيرُوم كَرْكُوپِينُو على القول في معرض دراسته المستفيضة عن المغرب القديم إنّه لم يجد أثرًا واحدًا لنفوذ روما على كنائس مُوريتانيا بعد سنة ٤٨٠[١].

(١) Jérôme Carcopino, *Le Maroc antique*, Paris, Gallimard, 1943, p. 300, note 4.

حـ ـ غياب كنيسة «وطنيَّة»

كلمةُ «وطنيَّة» عمليَّةٌ ولكنّها في غير زمانها، لأنّ الوطن، في مفهومه الحديث، مع ما يشمل من شعور بوحدة الحال ومن مصلحةٍ مشتركة وتنظيم، لم يكن ذا معنى في زمن تسوده القبليّة. وعليه فالأحرى بنا أن نتكلّم على هشاشة وجود المسيحيَّة بين البربر، وخاصّة على ما تمّ من طلاق في القرن الرابع بين مسيحيَّة محلِّيَّة أدركت كيانها المميَّز وبين كنيسة رسميَّة تساندها السلطة المدنيَّة.

أوَّلاً: هشاشة الوجود المسيحيّ بين البربر. تِلكُم أطروحة الأب مِيناج، فإنّه يقول: «السبب الأعظم في زوال كنيسة إفريقيا كان، في النهاية، قلّة عدد السكّان الأصليّين المنتَمين إلى المسيحيَّة»[1]. فكنيسة إفريقيا لم تضمّ في صفوفها أساسًا إلاّ مؤمنين رومان وعددًا من البربر المتَرَوْمِنين. وهذا عين ما أشار إليه القدّيس أوغسطينس لمَّا كتب (سنة ٣٩٩): «منذ بضع سنوات، بدأ بعض السكّان الأصليّين، وعددهم قليل جدًّا وهم يسكنون في أطراف الأمبراطوريَّة ويخضعون للرومان خضوعًا تامًّا بحيث باتت روما

(١) J Mesnage, *Le Christianisme en Afrique. Eglise Mozarabe. Esclaves chrétiens*, Paris, A. Picard, 1915, p. X.

تعيِّن لهم حكّامًا من لَدُنها عوض ملوكهم، بدأ هؤلاء السكّان وزعماؤهم يعتنقون المسيحيَّة». وهنا يجدر الانتباه إلى أنّ أوغسطينس صوَّر هذه الظاهرة وكأنّها غير اعتياديَّة، وأبرَزَ مدى العلاقة بين الاهتداء والخضوع للرومان. وأردف القدّيس قال: «ليس من مسيحيّ بين الذين لا يخضعون لروما»، ممّا يتيح للأب ميناج أن يستخلص ما يلي: «ثمّة أحد أمرين، إمّا أنّ المسيحيَّة لم تدخل في أثناء العهد الرومانيّ بين السكّان الأصليِّين، وإمّا أنّ هؤلاء جحدوا بأجمعهم»[١]، ويختار الافتراض الأوَّل مضيفًا أنّ عمليَّة الاهتداءات القليلة التي تمّت في مطلع القرن الخامس توقَّفت بفعل اجتياح الفندال. ولم يكن للبيزنطيِّين الوقت الكافي لتغيير هذا الواقع، وعلى كلّ حال لم يكن لهم من سلطةٍ ـ مشكوكٍ فيها ـ إلاّ على شرق إفريقيا الرومانيَّة القديمة.

ويرى الأب ميناج برهانًا على غياب المسيحيَّة عند البربر في غياب أيّ ليتورجية باستثناء الليتورجية اللاتينيَّة. ويقول: إن لم يكن هناك سوى الليتورجية اللاتينيَّة، فلأنّ غيرها كان غير ضروريّ، من جهة بسبب تحوُّل السكّان الفونيقيِّين السريع إلى نمط عيش الرومان، ومن جهة ثانية لأنّ البربر المسيحيِّين الذين ظلّوا على تقاليدهم الأصليَّة كانوا قلَّةً لا يُعتدّ بها.

(١) J. Mesnage, *Le Christian. en Afr. Déclin et Extinction*, p. 49.

إضافةً إلى ذلك رحل عن البلاد أغنياء المستعمرين الرومان والأسياد البيزنطيّون، فلجأوا إلى أوروبّا أو القسنطينيَّة، ولمَّا وفد الفاتحون العرب لم يجدوا إلاَّ أشلاء كنيسة جاءت مع الاستعمار وقد تضعضعت أركانها بتضعضع السيادة الرومانيَّة لأنّها طالما لم تتجذَّر في البلاد تجذُّرًا عميقًا.

وعلى الرغم من ذلك، فيبدو أنّ الواقع كان مختلفًا، ولسوف نرى أنّ كنيسة إفريقيا صمدت طوال خمسة قرون، ولعلّ تجذُّرها في بلاد البربر لم يكن من السطحيَّة على نحوِ ما تخيَّله بعضهم:

وأوَّل ما تجدر ملاحظته أنّ الرومان بالمعنى الحصريّ، من موظَّفين وتُجَّار ومستوطنين، لم يكونوا ليؤلِّفوا قسمًا عظيمًا من الأهلين، فالسواد الأعظم من السكّان كان من البربر، ولا بدَّ أن يكون معظم المسيحيِّين أيضًا من البربر.

ثمَّ إنّنا رأينا سابقًا أنّ القدِّيس أوغسطينس كان بحاجة إلى مترجمين ليتوجَّه إلى بعض مؤمنيه الناطقين بالفونيقيَّة. كما أنّه في زمن البيزنطيِّين لاحقًا مسَّت الحاجة إلى كهنة يتكلَّمون بتلك اللغة، ممَّا يعني أنّ معظم المسيحيِّين في الإبرشيَّات الستّمائة أو السبعمائة التي قامت بإفريقيا كانوا من البربر.

وعندما جاء القدِّيس أوغسطينس على ذكر السكَّان الأصليِّين

«القلائل جدًّا» الذين اهتدوا إلى المسيحيَّة، فإنّما كان يشير إلى القاطنين جهة «حدود الأمبراطوريَّة» لا إلى جماهير البربر المندمجين منذ أمدٍ طويل في إطار رقعة المملكة.

وأخيرًا لا بدَّ من الأخذ بعين الاعتبار أنّ الحقبة الممتدَّة بين عصر أوغسطينس والفتح العربيّ شملت ثلاثة قرون كان الحكم فيها للفندال البيزنطيّين، وهم وإن تخبّطوا مع رعاياهم في الاضطرابات والفوضى، إلاّ أنّهم وفّروا فترات من السلم أتاحت للمسيحيَّة بعض الانتشار والازدهار. فلا ننسَ أنّ الفندال كانوا مسيحيِّين، وكذلك البيزنطيّون، ولا شكّ أنّهم عمدوا إلى التبشير.

إلى ذلك، يفيدنا التاريخ وعلم الآثار أنّ المسيحيَّة انتشرت في مناطق الأوراس وموريتانيا والمزاب والواحات، وأنّ عددًا من قبائل الفزّان ـ في جنوب غرب ليبيا ـ اعتنقت المسيحيَّة. وذَكَر أحد النقوش الحجريَّة أنّ ماسُونَة، ملك منطقة وهران، كان مسيحيًّا. كما بيَّن جيروم كركوپينو في مرجعه الذي استشهدنا به آنفًا أنّ المسيحيَّة توغّلت في غرب المغرب وشماله منذ القرنَين الثاني والثالث، وأنّ تلك الأصقاع بقيت ملجأً للمسيحيِّين مدَّة طويلة بعد انكفاء الرومان عنها[1]. وفي تلك المناطق بالذات عُثر على

(١) كركوپينو، **المرجع المذكور**، ص ٢٩١ .

أغلبيَّة الكتابات المسيحيَّة المنقوشة على الحجر في إفريقيا الشماليَّة. فلئن آلت حال أولئك المسيحيِّين إلى الاضمحلال فأغلب الظنّ أنّ المسؤول الأكبر هو انعزالهم، ومن البراهين على ذلك أنّه لم يحضر مجمع قرطاجة سنة ٥٢٥ إلاَّ أسقف واحد من موريتانيا في حين حضر ١٨٤ عام ٤٨٤ . أمّا مَن كانوا لا يزالون في الوجود آنذاك فقد تعذَّر عليهم الحضور.

ثانيًا: الدوناتيَّة أو إخفاق كنيسة قوميَّة؟ يبدو إذًا أنّ حضور المسيحيَّة عند البربر لم يكن حضورًا سطحيًّا. غير أنّه طُبع في العمق بطابع الدوناتيَّة، وخاصّةً بطابع مناهضة الدوناتيَّة، ولعلّ هذه الظاهرة المزدوجة كانت سببًا من أسباب أُفول نجم الكنيسة الإفريقيَّة. وقد نكون مخطئين لو رأينا في الخلاف بين هذين التيَّارَين صراعًا بين كنيسةٍ رومانيَّة من جهة وكنيسة «وطنيَّة» من جهة أُخرى. ونكون مبالِغين لا محالة لو رأينا من جهةٍ كنيسة «الأغنياء» ومن جهة أخرى كنيسة «الفقراء»، أو لو لحظنا من جهةٍ كنيسةً مضطهِدَة ومن جهة ثانيةٍ كنيسةً مضطهَدة.

فما القول والحالة هذه عن **الدوناتيَّة**؟ باختصار إنّها قبل كلّ شيء حركة عظيمة الشأن، دينيَّة في جوهرها (إذ تسعى إلى إقامة كنيسة «مقدَّسة» في مواجهة كنيسة فاسدة خاطئة)، ولكنّها

سياسيَّة أيضًا تناهض السلطة، واجتماعيَّة تطالب بحقوق المستضعَفين المحرومين. ولم تكن بدعةً بقدر ما كانت انشقاقًا. ففي البداية لم تكن المشكلة مشكلة عقيدة، بل قضيَّة شخص. ذلك بأنّه في مطلع القرن الرابع لمّا انتُخب قَيقِلْيانُس أسقفًا على قرطاجة، لم يعترف به مسيحيّو نُومِيدِيا آخذين عليه مسايرته «المسلِمين» أي الذين أسلموا الكتب المقدَّسة إبَّان اضطهاد ديوقلتيانُس. وتجمَّع المناهضون حول دُوناتُس، وهو أحد الأساقفة. وبعد أن أصدر قسطنطين سنة ٣١٣ منشور مِيلانُو الشهير، أيَّد موقف قيقليانس وشجب المتمرِّدين، فكان أن أظهر للعيان تضامُن الكنيسة الرسميَّة والسلطةِ المدنيَّة، ممَّا أعطى الدوناتيَّة زخمًا لم يكن في الحسبان، وسرعان ما استحالت الكنيسة المنتصرة كنيسةً مضطهِدة.

وفي الوقت نفسه قام في نوميديا ما يشبه الثورة الاجتماعيَّة، يذكيها الاضطهاد ولكن لا علاقة مباشرة بينها وبين الدوناتيّة. وكانت عنيفةً تستهدف كبار ملاّكي الأراضي المستبدِّين بالفلاّحين. وعُرفت بحركة السيركونسليون[1] «وكانوا يفاخرون بأنّهم أتوا لإعادة العدالة في الأرض، وكانوا يَدْعون العبيد إلى

(١) أطلب الحاشية في الصفحة ١٦.

الحرّيّة». ولم تَرُق تلك الحركة في بداية أمرها لا الأساقفة الكاثوليك ولا الأساقفة الدوناتيّين. إلاّ أنّ جامعًا مشتركًا ما عتّم أن قرّب بين أتباع دوناتُس والثوّار، وهو بغضهم السلطة: فالدوناتيّون المقهورون يثورون على كبار الملاّكين الذين تدعمهم السلطة. وكان لا بدّ للتيّارين من أن يتّحدا، أقلّه في الأرياف، وشملا بنقمة واحدة الكنيسة الرسميّة، والسلطة الملكيّة، وكبار الملاّكين، لتضامنهم جميعًا في مكافحة الانتفاضة.

وكانت النتائج وخيمة جدًّا والخراب واسع النطاق. وانتصرت الكنيسة الكاثوليكيّة لا سيّما بفضل جهود القدّيس أوغسطينُس الذي اضطرّ إلى الاستعانة بالسلطة الملكيّة لمقاومة المنشقّين[١]. بيد أنّ الارتدادات المفروضة لا يوثق بها، وكانت الأحقاد لا تزال متّقدةً تحت الرماد، وتلاشت احتمالات قيام كنيسةٍ إفريقيّة قريبة من الشعب وقواه الفاعلة الحيّة، مستقلّةٍ عن سلطة المليك لا ترتهن له ولا تزول بزوال حكمه.

---

(١) حاول أوغسطينس بشتّى الطرق مواجهة المنشقّين، فكتب الكثير من المقالات وساهم في عدد كبير من لقاءات الحوار، ولكنّه لم يفلح، فلجأ إلى سلطة الدولة مختارًا أهون الشرّين. هذا ما بيّنه كُستاف بَردِي في كتابه عن الأسقف العظيم. أطلب: Gustave Bardy, *Saint Augustin. L'Homme et l'Œuvre*, Paris, Desclée de Brouwer, 1948, pp. 324-350.

ولكن هل يمكن الاستنتاج من ذلك فعلاً أنّ كنيسة إفريقية، لو استقلّت عن السلطة المدنيّة، لاستطاعت أن تصمد في وجه الفتح الإسلاميّ على غرار شقيقاتها في المشرق؟ وهل يصحّ كلّيًا القول بأنّ كنيسة أوغسطينس قد ساهمت في إفناء ذاتها لمّا تضامنت مع السلطات الزمنيّة لمناهضة الدوناتيّين واضطهادهم؟ من الصعب جدًّا الجواب عن هذين السؤالين لأنّنا رأينا سابقًا أنّ أسبابًا عديدة أخرى كان لها دور في هذا الشأن ويجب أخذها بعين الاعتبار. ولو تمّ النصر للمنشقّين هل كان من المعقول أن تصمد كنيستهم في وجه الإسلام على نحوٍ لم تعرفه الكنيسة الكاثوليكيّة؟ الأمر غير مستَبْعد، إلاّ أنّه ينبغي التذكّر أنّ جماعاتٍ دوناتيّة نشيطة كانت لا تزال مزدهرةً عشيّة الفتح العربيّ، ولكنّها لم تكن خيرًا من سواها في التصدّي لهيمنة الإسلام.

الخاتمة

لا يمكن حصر زوال المسيحيَّة في إفريقيا الشماليَّة بهذا السبب أو ذاك. فكلّ الأسباب التي أوردناها ساهمت وجميعها تضافرت، ولعلّ هناك بعضًا ممّا لم نأت على ذكره. وما لا شكّ فيه أنّ الجماعات المسيحيَّة لم تُستأصل بين عشيَّة وضحاها، بل استمرّت مدَّة خمسة قرون، بأعداد قليلة، لا تأثير لها ولا تألّق، في حالةٍ شبيهة بحالة سائر الأقلّيّات في البلدان الإسلاميَّة. إلاَّ أنّ الانكفاء لم يكن على الصعيد العدديّ بقدر ما كان على الصعيد الفكريّ والثقافيّ. فقد باتت تلك الجماعات غير قادرة على أن تجد في ذاتها المقوّمات الروحيَّة والمادّيَّة الكفيلة بتأمين بقائها على قيد الحياة، كما أنّها انعزلت انعزالاً تامًّا عن المصادر الأوروبيَّة والمشرقيَّة التي كان بإمكانها أن تغذّيها، فضعفت ولم يعد لها من حَيل للمقاومة، واستطاع الموحّدون المتزمّتون القضاء عليها بلا شديد عناء، فماتت بسبب ضعفها الناتج عن جوعها.

بعض مراجع البحث

Jean-Paul BRISSON, *Autonomie et Christianisme dans l'Afrique romaine,* Paris, de Boccard, 1958.

Jérôme CARCOPINO, *Le Maroc antique,* Paris, Gallimard, 1943.

Christian COURTOIS, *De Rome à l'Islam,* dans *Revue Africaine,* t. LXXXVI, 1942, pp. 25-55.

Christian COURTOIS, *Grégoire VII et l'Afrique du Nord.* Remarques sur les communautés chrétiennes d'Afrique au XIe siècle, dans *Revue Historique,* 1945, t. 195, pp. 98-122, 193-226.

J. CUOQ, *L'Eglise d'Afrique du Nord du IIe au XIIe siècle,* Paris, Le Centurion, 1984.

Ch. - E. DUFOURCQ, *La vie quotidienne dans l'Europe médiévale sous domination arabe,* Paris, Hachette, 1978.

E. - F. GAUTIER, *Le passé de l'Afrique du Nord, Les siècles obscurs,* Paris, Payot, 1952.

Charles-André JULIEN, *Histoire de l'Afrique du Nord, des origines à la conquête arabe,* Paris, Payot, 1951.

J. MESNAGE, *Le Christianisme en Afrique du Nord, Déclin et extinction,* Paris, Auguste Picard, 1915.

J. MESNAGE, *Le Christianisme en Afrique. Eglise Mozarabe. Esclaves chrétiens,* Paris, Auguste Picard, 1915.

المحتويات

صدر من «**موسوعة المعرفة المسيحيّة**»

تاريخ الكنيسة

---

١ ـ الكنيسة السريانيّة الشرقيّة
٢ ـ الشيع المسيحيّة، نشأتها وتنظيماتها
٣ ـ تاريخ الحركة المسكونيّة قبل المجمع الڤاتيكانيّ الثاني
٤ ـ تاريخ الحركة المسكونيّة بعد المجمع الڤاتيكاني الثاني
٥ ـ الكنيسة القبطيّة
٦ ـ أسباب زوال الكنيسة في إفريقيا الشماليّة بعد الفتح العربيّ

تصميم الغلاف : **جان قرطباوي**

الصفّ : **شركة الطبع والنشر اللبنانيّة**
(خليل الديك وأولاده)

الطباعة : **مطبعة دكّاش**

٢٢٠ ـ ٣ ـ ٩٣/٤/٣٠

الأب بولس دسيزييه يسوعيٌّ فرنسيّ يعمل في الجزائر منذ أمد طويل، وهو الآن باحث في «مركز التوثيق الاقتصاديّ والاجتماعيّ» بمدينة وهران.

* * *

ناقل الكتيّب إلى العربيّة هو مدير دار المشرق ومجلّة المشرق. له عدد من المؤلّفات الدينيّة والأدبيّة بعضها موضوع وبعضها الآخر منقول.

منشورات:
دار المشرق - ص.ب: ٩٤٦
بيروت، لبنان

التوزيع:
المكتبة الشرقيّة - ساحة النجمة
ص.ب: ١٩٨٦ - بيروت. لبنان